

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨ - سُورَةُ الْقَصَصِ

سميت به لاشتمالها على قوله تعالى (١) (فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجات المارين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء - أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتمالها على ما لا يشتمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايى .

والسورة مكية كلها . وقيل لإلّا من قوله تعالى (٢) (الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) إلى قوله (الْجَاهِلِينَ) فقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشى الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحد .
وقوله تعالى (٣) (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) الآية لما روى من نزولها بالجحفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهي ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

(١) [٢٨ / القصص / ٢٥] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّم)

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

«طسّم» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مأمرة «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا

عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة مانتبة بالحق . كما قال تعالى ^(١) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ثم

استأنف ما يجري مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ»

أي تكبر وتجاوز الحد في الطغيان ، في أرض مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» أي فرقا وأصنافا

في استخدامه وطاعته «يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ» وهم بنو إسرائيل «يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» وذلك إماتة لرجلهم ، وتقليلا لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعه الملك

«إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أي المتمكنين في الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذي جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ

مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَالْتَقَطَهُ ءِالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ » أى تفضل « عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً »

أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » أى : ملك

عدوهم . كما قال تعالى ^(١) (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَمْرُسُونَ)

« وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ » أى من أولئك المستضعفين « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم

وذهاب ملكهم ، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطفيانهم « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ » أى إمر

ولادته فى تلك الشدة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين

بأيديهم الشفار الرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » أى فى البحر ،

وهو النيل « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ وَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا « أى فى هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة . أبرز مدخولها فى معرض العلة ، لالتقاطهم . تشبيهاله فى الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ » أى مجرمين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَوَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ » أى لفرعون ، حين أخرجته من التابوت « قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَوَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بما سيكون « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيغًا » أى خاليا من العقل ، لما دههما من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش ، لما بلغها وقوعه فى يد فرعون « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ » أى بأمره وقصته ، وأنه ولدها « لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشيء المنفلت ليقتر ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أى المصدقين بوعد الله . وهو قوله ^(١) (إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَيْكَ) .

قال الزمخشري : ويجوز ، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه . إن كادت لتبدي بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أننا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكنا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لا بتبني فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أي اتبعي أثره لتتألي خبره « فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُبِّ » بضم النون وسكونها . أي : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أي أنها تتعرف حاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ

حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنَ شِيعَتِهِ

عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَّلَهُ مَوْسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ وَعَدُوُّ مُضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَلَمْتُ عَلَىٰ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ » أي من قبل قصصها أثره . و (المراضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الضاد . وهى المرأة التى ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميمي ، جمع لتعدد مواده . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدي « قَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ لُؤْلُؤًا » أى فى رضاعه وتربيته « فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَسَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيته « وَلَا تَحْزَنْ » أى بفراقه « وَتَعَلَّمَ أَنَّهُ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ » أى كمال قوته ، « وَأَسْتَوَىٰ » أى اعتدل مزاجه « ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى فى أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ما قدر له من الرسالة ، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ » أى مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيولة . وقيل بين العشاءين « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ » أى يتنازعان « هَذَا » أى أى الواحد « مِنْ شِيعَتِهِ » أى ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل « وَهَذَا » أى الآخر « مِنْ عَدُوِّهِ » أى ممن خالفه فى دينه وهم القبط « فَاسْتَعْتَبَهُ » أى سأله الإغاثة « الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ » لكونه مظلوماً « عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ » لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين « فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ » أى ضربه بجمع كفه « فَقَضَىٰ عَلَيْهِ » أى قتلته « قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظالماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بقتله « فَأَغْفِرْ لِي فَعَفَّرَ لَهُ » إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف . أى أقسم بإنعامك على بالمغفرة ، لأتوبن ولا أظاهر المجرمين . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب! اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة . فلن أكون ، إن عصمتنى ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم ، إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملة وتكثير سواده ، وإما مظاهرة من أدت مظاهرتة إلى الجرم والإثم ، كظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . قاله الرخشرى .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده .

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو يرى لهم قلماً ، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ وَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا

فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

[٢٠] (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْأَمْلَاءَ يَأْتُمِرُونَ

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ

الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى الاستقادة أو الأجناد . « فَإِذَا الَّذِي

اُسْتَنْصَرُهُ وَ بِالْأَمْسِ » أى استعانه فقتل من أجله منازعه القبطى « يَسْتَصْرِخُهُ وَ » أى يستغيثه

من قبطى آخر « قَالَ لَهُ وَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرك إليهم مالا محمد عقباه « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا » أى لموسى وللإسرائيليين ، وهو القبطي « قَالَ » أى ذلك العدو وهو القبطي ، لا الإسرائيليين كما وهم « يَمُوسَى آتُرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزمخشري: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا يفتقر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن. « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْمَى » أى يسرع لفرط حبه لموسى « قَالَ يَمُوسَى إِنْ الْمَلَأَ بِأَمْرٍ مِنْ بَيْتِكَ » أى يتشاورون بسبيك « لِيَقْتُلُوكَ فَأُخْرِجْ » أى من حدمملكهم « إِنْ لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى فلا يلحقني فيه الطالبون « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن الماء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقي « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما في الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » أى عادتنا أن لانسق حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقي . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ،

نَجَّوْتَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَسَقَى لَهُمَا » أى فسقى غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام . وعلى الأخير حملة الأكترون بمعونة المقام « فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تأمره وابتقله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى بالخروج عن حد ولايتهم ، إذ لاسطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ، إِنْ خَيْرٍ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينِ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي

مَنْحِي حَبِيجٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَلِكَ يَدْنِي وَيُدْنِيكَ ، أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ ،

وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق بذلك « إِنْ خَيْرٍ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ » أى خير من أردت جملة أجيراً ، القوى على العمل المؤمن فيه .

قال الزمخشري : وقولها (إِنْ خَيْرٍ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ) كلام حكيم جامع لا يزداد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة ، أن تقول : استأجره لقوته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال ، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة . وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى . ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أميناً : يستعين به على ما كان بصده رضى الله عنه . انتهى . « قَالَ إِنِّي أُرِيدُ » أى لقوتك وأمانتك ، ما يقوى المودة ويجذب القلوب « أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ » أى على أن تكون أجبرى لرعى المواشى بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثماني سنين « فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإجابه « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمهد « قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » أى ذلك الذى عاهدتنى عليه ، لا يخرج عنه جميعاً « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » أى أتممت « فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ » أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَامَّا قُضِيَ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ نَسَ النَّسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَامَّا آتَمَهَا نُودَى مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،
يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » أى سار من جانب الطورِ
نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ « أى من الطريق ،
من ضوءها ، أو ممن عندها « أَوْ جَدْوَةٍ » مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شئ
« مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّا آتَمَهَا » أى قرب منها « نُودِيَ مِنْ
شَطْرِي » أى جانب « الْوَادِ الْأَيْمَنِ » أى المبارك . يقال : يمن فهو ميمون وأيمن . وتفسيره بخلاف
الأيسر بعيد . لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادى
بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد . وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المباني
« فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهي « مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَانٌّ
أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّى مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها
« وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أى من المخاوف .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِيهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ،
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْمَلُ لَكُمْ سُلْطَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بَأْيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

« أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أى أدخلها فيه « تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى عيب « وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى يدك « مِنْ الرَّهْبِ » أى الخوف . قرئ بفتحتين ، وضمين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير : والظاهر أن المراد أعم من هذا . وهو أنه أمر عليه السلام ، إذا خاف من شيء ، أن يضم إليه يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك ، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى . وبه الثقة . « فذّانك » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مَآ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » أى فيكون أحسن بيانا . ولا يتحمل ذلك مالم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا * أَيْ مَعِينًا * يُصَدِّقُنِي » أى لنشاط قلبي « إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ » أى يتفقوا على تكذيبى المؤدى إلى أنواع الأذيات .

قال الزمخشري : فإن قلت : تصديق أخيه ، ما الفائدة فيه ؟ قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس : صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة . فذلك جار مجرى التصديق المفيد ، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك . لا لقوله صدقت . فإن سبحان وياقلا يستويان فيه . أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذى يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازياً . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية. شبه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. « وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا » أى غلبة ومهابة في قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بإيذاء، فضلا عن القتل « بِأَيْتِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو (نجعل) أى نسلط كما بها أو بمعنى (لا يصلون) أى تمتنعون منهم بها. أو قسم جوابه (لا يصلون) مقدر. أو صلة لـ (الغالبون) فى قوله « أَنْتُمْ وَأَمَّنِ اتَّبَعَكُمُ الْفٰلِغُونَ » وتقدمه، إما للفاصلة أو للحصر. أى الغالبون عليهم، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْاَوَّلِينَ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىْ اَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهٖ وَمَن تَكُوْنُ لَهُ وِعَاقِبَةُ الدَّارِ ، اِنَّهٗ وَاَوْفٰى لَظَلٰمِ الْظٰلِمِ۞نَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يٰٓاَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ اٰلِهٍ غَيْرِىْ فَاَوْقِدْ لِيْ يٰهٗمَنِّ عَلَى الْطِيْنِ فَاَجْعَلْ لِّيْ صَرْحًا لَّعَلِّىْ اَطَّلِعُ اِلَى اٰلِهٍ مُّوسَىٰ وَاِنِّىْ لَاطْنُوْهُ مِنْ الْكٰذِبِيْنَ)

«فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فلا افتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم الهايرسل الرسل

بالآيات « فِيءِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ » أى كائنًا فى أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أولأنهم لم يؤمنوا به أيضاً « وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » قال المهاجى: معناه: كفى دليلاً على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار. وهى العاقبة المحمودة. والمراد (الدار) الدنيا. وعاقبتها وعقبها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان. وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُ وَ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدرأجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة. وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكركم. وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة. ونهاية أعدائه وضيفة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي » هذا حكاية لتمرده وعموه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة. كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله (١) (لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) وكما قال تعالى (٢) عنه (فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَسْكَالًا لِآخِرَةٍ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ » أى ناراً، فأخذ منه آجراً.

قال الزمخشري: ولم يقل (اطبخ لى الآجر) وأخذها) لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقتة، وأشبهه بكلام الجبارة. وهامان وزيره ومدبر رعيته « فَأَجْعَلِ لِي » أى من الآجر « صَرْحًا » أى قصرأ رفيعاً إلى السماء « لَعَلِّي أَطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى »

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦] .

يعنى العلى الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَمِنَ الْكٰذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية ، والعلو لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ

بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى ، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه ، وادعاء العلم الكلى لنفسه مع جهله بربه « وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بل بالفساد ورد الحق ، والصد عن سبيل الله « وَظَنُوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً « أى يلعنهم كل مؤمن بسمعهم « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » أى من المطرودين ، المبهدين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهَدَىٰ » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتعظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيامن علام الغيوب، ببيان أنه مافصل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ » أي الوادي الغربي الذي كوشف فيه موسى عن النجاة
 « إِذْ قَضَيْنَا » أي قدرنا وأمهينا « إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » أي أمر الإرسال والإنباء « وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * » وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا « أي بين زمانك وزمان موسى « فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » أي أمد انقطاع الوحي، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبعث والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا » أي مقياً « فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أي لك، وموحيين إليك تلك الآيات. أي ما كان الإنباء بها إلا وحياً مصدره الرسالة « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أي وقت ندائنا موسى « وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكره وبغيره، لرحمة عظيمة كائنة منك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ » أي من نذير في زمان الفترة، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أي يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»

[٤٨] «فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ،

أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا

إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ»

«وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» أى عقوبة «بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ» أى من الكفر والفساد «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى بها . وجواب (لولا) الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه . أى ما أرسلناك . لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تراول بالأيدى ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدى، وتقديم الأيدى، وإن كان من أعمال القلوب . وهذا من الاتساع في الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ» أى من قلب العصا حية، وخلق البحر، وغيرهما من الآيات . تعنتاً وعناداً، كما قالوا^(١) «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ وَمَلَكٌ» وما أشبه ذلك . وقوله «أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ» رد عليهم، وإظهار لسكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أى أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتي موسى من الكتاب «قَالُوا» أى فى موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) «تَظَاهَرَا» أى تعاونا . وقرئ «سِحْرَانِ» أى ذوا سحرين؛ أو جعلوهما

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَّكَانَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبي صلوات الله عليه ، هي الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنساني كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتميز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لا بد له في هذا الطور من معلم ومرشد ، كافي الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ في الاستدلال على نبوته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذي يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا في مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٥٠] (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[٥٥] (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بنجیر منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين . والذکرى التى تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنین ، وبحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعُهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تعاندوننى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلفان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بين الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيك والإلحاح . انتهى .
أى لالشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلّ : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم ، نوع تهكم بهم « فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَأَعْلَمُ » أَيْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ » أى الزائفة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ » الاستفهام إنكارى للنفى . أى لأحد أضل منه . كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم بالإنهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهداية إلى الحق المبين .

قال الرازي: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أي أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً ، بعضه إثر بعض ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة . إرادة أن يتذكروا فيفعلوا . وقرئ (وصلنا) بالتشديد والتخفيف « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ » أي القرآن « هُمْ بِهِ يَتَذَكَّرُونَ » وهم مؤمنوا أهل الكتاب وأولياؤهم « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أي القرآن « قَالُوا ءَأَمِنَّا بِهِ » أي إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله « أي من قبل نزوله « مُسْلِمِينَ » أي منقادين له ، لما عندنا من المبشرات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك « أَوْلَآئِكَ » أي الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » يعني مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا » أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم « وَيَذَرُونَ » أي يذفمون « بِأُحْسَنَةِ السَّبِيَّةِ » أي بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أي للبؤساء والفقراء ، وفي سبيل البر والخير ، فراراً عن وصمة الشح ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ » أي من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا عَنْهُ » أي تكريماً للنفس عن ملابسة الأذنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا » أي لهم « لَنَأَعْمَلُنَّ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أي بطريق التوديع والتاركة ؛ وعن الحسن رضي الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » أي لا نزيد مخالطهم وصحبهم ، ولا نزيد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازي : قال قوم : نسخ ذلك بالأمس بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجباً .

تنبيه

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت في سبعين من القسيسين . بعضهم النجاشي .

فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم^(١) (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) حتى ختمها . فاجعلوا
يكون وأسلموا .

وقال محمد بن إسحق في (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون
رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه في المسجد .
فجلسوا إليه وكلموه وسألوه . ورجال من قريش في أنديةهم . حول الكعبة . فلما فرغوا
من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن
فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف
لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش .
فقالوا لهم : خبيسكم الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تنادون لهم ، لتأتوهم
بخبز الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركبا أحق
منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لأنجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم
ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن نفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أى ذلك كان .
قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ
هُمْ بِهِ يَوْمٍ مُنُونٍ) إلى قوله (لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم
نزلن في النجاشي وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتي في سورة المائدة^(٢) (ذَلِكَ بِأَنَّ
مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا) إلى قوله^(٣) (فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

(١) [٣٦ / يس / ٢١] . (٢) [٥ / المائدة / ٨٢] .

(٣) [٥ / المائدة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطْفَ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ
لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُحِبِّيَ إِلَيْهِ نَمْرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَم أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ
لَمْ تَسْكُنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لاتقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى أن يهديه فيدخله فى الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارى^(١) فى (صحیحه) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص ، ١ - باب قوله إنك

لا تهدي من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك . فأُنزل اللهُ (١) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل اللهُ في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ (٢) (إِنَّكَ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم (٣) في صحيحه والترمذي (٤) أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم ، عن أبي هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا . وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام . انتهى . وقال ابن حجر في (فتح الباري) : لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب . انتهى .

وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية في كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها . ثم ذكر تعالى من تمنعهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائي ، بقوله سبحانه « وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ » أي ونخالف العرب « نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » أي مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أي : ألم نعصمهم من عدوهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمنٍ ، لحرمة البيت الحرام ، الذي تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجَبِّي آ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله ، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلصوا أئذاده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ مَّبْطُرَاتٍ مَّعِيشَتَهَا » أي كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعتنا)

(٤) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص

لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ « أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندر الباقى . أو (مصدر) أى سكننا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

[٦٠] (وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المذرة « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيًا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد « وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا » أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، لخلوه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰ » لأنه أبدى لا يزول « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَئِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ

الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ « أَى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) فى القرآن فى المذنب . وإليه أشار الزمخشري ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحض منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم وما اختاروه « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوا يعبدون

أهواءهم وشهواتهم «وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَ كُفُّمَ» ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَأَاجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم لانهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: فيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لانهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدى بـ (على) . فيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به «فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ» أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم محتوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحقٌ للمصر «فَأَمَّا مَنْ تَابَ» أى من الشرك «وَأَمَّنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطعمه . كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشري «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد «مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

قال الزمخشري : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى التخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده . ولذا قال «سُبْحٰنَ اللّٰهِ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ» من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئا ولا تختار .

تنبية :

للإمام ابن القيم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جذيرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات . قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار ، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . ودخل في قوله تعالى (مَا يَشَاءُ) فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفيًا . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده . فكأنه هو المتفرد بالخلق ، فهو المتفرد بالاختيار منه . فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحال رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) في قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) موصولة وهي مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها - أن الصلة حينئذ تخلو من العائد . لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفًا ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة في اختياره . قيل : هذا يفسد من وجه آخر . وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجرورًا إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت ، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى - أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير . الثالث - أن الله سبحانه يحكى عن الكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرد بالاختيار ، كما قال تعالى (١) « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَىٰ بِتَيْنٍ عَظِيمٍ * أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ، وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » فانكر عليهم سبحانه تخييرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معاشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل ، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معاشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بين فيها انفراد بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال (٢) « وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَ أَىٰ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَلِّ الَّذِي يَصْلَحُ لِاصْطِفَائِهِ وَكَرَامَتِهِ وَتَخْصِيصِهِ بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ ، دُونَ غَيْرِهِ . الرابع - أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال « مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإنبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس - إن هذا نظير قوله فى الحج (٣) « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْأَلِبَهُمُ الدُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ثم قال (٤) « اللَّهُ يُصْطَفِي مَن

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤] . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥ و ٧٦] .

الْمَلَأْنَا مَكَّةَ رَسُولًا وَمِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) وهذا نظير قوله في القصص (١) (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله في الأنعام (٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ و) فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دأراً عليه . والله أعلم .

السادس - إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله (٣) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته . وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره . فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره في هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله . فنشير منه إلى شيء يسير يكون منها على ما وراءه، دالاً على ما سواه . خلق الله السموات سبعاً . فاختار العليا منها فجعلها مستقر المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات . ولولم يكن لإقربها منه تبارك وتعالى . وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوى

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ - ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفاً. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولى العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه لولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بنى كنانة بن خزيمه. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بنى هاشم. ثم اختار من بنى هاشم، سيد ولد آدم محمداً ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاه وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهى البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فيج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه، ولا يلتقط لقطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. تخيير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجود الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَانَ اللَّهِ» أى تنزيهاً لله الذى لا يزاحم اختياره اختياراً «وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ » أَفَلَا تَسْمَعُونَ « أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٧٣] (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَ لَتَنُوذِرُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَا أَيُّكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى فى الليل « وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسدية والروحانية، باستعمالها فيما واجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » أى نبياً يشهد عليهم بما كانوا عايناه . كقوله تعالى^(١) « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » « فَقُلْنَا » أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فمجزوا عن آخرهم . وظهر برهان النبىؐ ، كإقال تعالى « فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية، لا يشاركه فيها أحد « وَصَلَّ عَنْهُمْ » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة « إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ » أى من شا كلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسىؑ ، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا، لغروره وتعززه بروية زينة نفسه « وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَ » أى مفاتيح صناديقه . على حذف مضاف . أو الإضافة لأدنى ملابس . وقيل خزائنه « لَتَنُوۡءَ » أى تثقل « بِالْمُعْصَبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح ، لما فيه من إثارتها عن الآخرة ، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ، وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

« وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك ، بمداقاة « الدَّارَ الْآخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب . وتجمعه زادك إلى الآخرة « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفئك « وَأَحْسِنْ » أى إلى الناس . أو اعمل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * » قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » أى بطرق التجارة أو المكاسب « أَوَلَمْ يَعْلَم » أى مما سمع بالتواتر « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ جَمْعًا » أى الكثيرة ، بحيث صارت سنة له « مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » أى بالأموال والأنباع « وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ »

الْمُجْرِمُونَ « أی لا يتوقف إهلاكه بإهم على سؤال ، ليعتذروا عنها . بل متى حق عليها القول ، بفسقهم ، أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[۷۹] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

يَلْبَسْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[۸۰] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

[۸۱] (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ)

[۸۲] (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

لَخَسَفَ بِنَا ، وَيَكَآنَ لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أی قارون باغیا « عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ » أی مُغْتَرِّبًا بِالنَّظَرِ فِيهَا « قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أی جریا علی سنن الجبلۃ البشریة ، من الرغبة فی السعة والیسار

« يَلْبَسْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * » وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ » أی مما تتمنونه « لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا » أی

هذه الكلمة التي فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهي الإيمان

والعمل الصالح « إِلَّا الصَّابِرُونَ » أی علی الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن

تجرى في أعقاب المخرقات . و(وبلك) في الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمني ، مجازاً . وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِ عَيْنَ وَبَدَّارِهِ » أي المشتعلة على أمواله « الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أي بدفع العذاب عنه « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ » أي بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْكَأَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أي من شق وسعيد « وَيَقْدِرُ » أي يقبض . فلا دلالة في البسط على السعادة . ولا في القبض على الشقاوة . بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يقتضي القبض « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » أي بعدم إيتائه متمننا « لَخَسَفَ بِنَا » أي كخسف به « وَيَسْكَأَنَّه » ولا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » أي لنعمة الله ، في صرفها في غير سبيلها . أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

في (ويكأن) مذاهب :

الأول - أن (وي) كلمة بزأسها . وهي اسم فعل ، معناها أعجب . أي أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما في حيزها مجرورة بها . أي أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وي) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائي .

الثاني - أنه مركب من (وي) للتعجب (وكأن) للتشبيه . والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط . أي ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقاً إلى آخره ، أمر قارون وما شوهد من قصته . والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال ، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شيء . كما أشار إليه في الكشف .

الثالث - قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه . إلا أنه ذهب منها معناه . وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضاً يناسبه الوقف على (وي) .

الرابع - زعم الهمداني في (الفرائد) أن مذهب سيويويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأن) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس - ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) تخفف بحذف اللام .

والعامل في (أن) اعلم ، المقدر . والكاف على هذا ضمير في محل جر . وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس - أن (ويك) كلمة برأسها . والكاف حرف خطاب . ويقرب هذا مما قبله . قال أبو

البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدها - أن معنى الخطاب هنا بعيد . والثاني - أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع - أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن

ابن عباس . ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين .

فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائي وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما استفاد من حواشي الفاضل والسمين . وعندى أنها مركبة من (وى) للتعجب

و(كأن) التي للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على

ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة - كما قال ابن كثير - أمر وعضي اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب . يقال (ويك) و(وى لزيد) وتدخل

على (كأن) الخففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي قَلَّ مَالِي . قَدْ جِئْتَانِي بُنْكَرٍ
وَيْ كَأَنَّ مِنْ يَكُنُّ لَهُ نَسَبٌ يُحِبُّ بَبٍّ وَمَنْ يَقْتَرِ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل ففناه في الإضراب عن كثير من مرويه ، الموقوف والضعيف الذي سودت به الصحف . ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرُ مِمَّا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ » أي غلبة وتسلطاً بسوء وتكبر « وَلَا فَسَادًا » أي بظلم وعدوان وصد عن سبيل الله تعالى « وَالْعَاقِبَةُ » أي النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أي الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأفعال والأفعال .

قال الزمخشري ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد . ولكن بترك إرادتهما ، وميل القلوب إليهما . كما قال^(١) (وَلَا تَرَهُ كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) فعلق الوعيد بالركون . وعن علي رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه . فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهب الأمانى ههنا . وعن عمر بن عبد العزيز ، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطمّاع من يجعل العلو لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقاً بقوله^(٢) : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)^(٣) (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) ويقول : من لم يكن

(١) [١١ / هود / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤] . (٣) [٢٨ / القصص / ٧٧] .

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَأُوَلِّمُوهُمُ الْمَثَقَاتِ كَمَا تَدْبِرُهُ عَلَى الْفَضِيلِ وَعَمَّرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ») معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتعجين حالم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، وزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامين . ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى مثله . وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها . ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعائة . وهو معنى قوله (فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا) كذا في الكشاف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ

مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُمَلِّقَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ،

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه

إليهم ، وصدعهم به « لَرَأْدُكَ » أى بعد الموت « إِلَىٰ مَعَادٍ » أى مرجع عظيم . وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم . ووجهه - كما فى (العناية) - أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيماً لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوة . كما قال

تعالى ^(١) (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى ^(٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

اللَّهُ الرَّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) وقال^(١) (وَجِئْنَا بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة . إلى الموت . إلى الجنة أخرجت عنه من طرق . كما أسنده ابن كثير . والذي رواه البخاري والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرادك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكياً ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذى هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بمحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَأَيْكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت . وتارة بالجنة التى هى جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأَلْهُدَىٰ » يعنى نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من الثوبة « وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ » أى ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحي إليك ، أن الوحي ينزل عليك « إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ » أى ولكن لرحمة من ربك التى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ » أى معيّنهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرماني فى (الغرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانيهم ، وأنه أمر بالهجرة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ،
والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعلِّمُ كلمتك ومؤيد دينك .
ولذا قال « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى إلى عبادته وحده لا شريك له « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *
وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتبهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه
لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك
مبغوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله . أو المراد نهى أمته ، وإن كان الخطاب له ﷺ .
كذا فى (العناية) .

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَ » أى إياه و(الوجه) يعبره عن الذات
كما قال ^(١) « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وفى قوله
تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد
ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم
حالا . والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتى . لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل
للعدم . وعن مجاهد والثورى (إلا وجهه) أى ما أريد به وجهه . حكاة ^(٢) البخارى فى (صحيفه) .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و ٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص .

قال ابن جرير^(١) : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا ، لَسْتُ مُحْصِيَهُ
رَبُّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهذا القول لا ينافي القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .
وفيه بُعد وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التزويل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لا تحتمل ذلك المعنى ، فكذا هذه « لَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيراً نغير وإن شراً فشر .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبي الثانية)